## الفصل السابع

# بصيرة القلب

في خضم هذه الفتن الشديدة المدلهمة، وتلك الشهوات المحيطة المضلة، وتلك الشبهات الحاقدة المغرضة التي تهدف إلى هدم الدين، واستئصال شأفة المسلمين يكون من أهم عوامل الاستقامة والثبات والسداد بصيرة تهدي، ونور في القلب يبدد كل ظلمة، وفهم سديد يمحق كل شبهة، ويعصم صاحبه من الزلل، ويحفظه من نزغات الشياطين ووساوس المغرضين، ومن مكر كل خبيث من أعداء هذا الدين، ومن آتاه الله تلك البصيرة عرف الحق وآثره واستقام عليه ولم يرض به بدلًا، ولم يبغ منه حولًا، ولم يقبل فيه تفريطًا، ولم يستغن عنه طرفة عين؛ فما هي البصيرة؟

## حقيقة البصيرة

البصيرة هي قوى القلب المدركة، وفطنته ووعيه ورؤيته للأشياء على حقيقتها تلك التي تجعل الإنسان يعطي كل شيءٍ حجمه ويعطي كل ذي حق حقه والبصيرة للقلب كالبصر للعين قال الليث: البصيرة اسم لما اعتقد في القلب من الدين وتحقيق الأمر، وقيل: البصيرة الفطنة[١]، وقال ابن الأثير: العمه في البصيرة كالعمى في البصر[٢]، وفي المعجم الوسيط: البصيرة قوة الإدراك والفطنة والعلم والخبرة ويقال فراسة ذات بصيرة صادقة، وفعل ذلك عن بصيرة أي عن عقيدة ورأي، والحجة والرقيب والعبرة والستارة تغطي الباب وكل ما اتخذ جنة كالدرع والترس وغيرهما، والقليل من الدم يستدل به على الرمية وجمعها بصائر وبصار[٣].

(١) «لسان العرب» مادة (بصر) (٤/ ٦٤) ط. دار صادر.

(٢) المصدر السابق مادة (عمه)، (١٣/ ٥١٩).

(٣) «المعجم الوسيط» مادة (بصر)، (١/ ٥٩٠) ط. دار الدعوة.

يقول الإمام ابن القيم عليه رحمة الله: البصيرة نورٌ يقذفه الله في القلب يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل كأنه يشاهده رأي عين فيتحقق بذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل وتضرره بمخالفتهم وهذا معنى قول بعض العارفين: البصيرة تحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به وقال بعضهم: البصيرة ما خلصك من الحيرة إما بإيمان وإما بعيان[1].

ومن هذا نعلم أن البصيرة تعني رؤية الأشياء على حقيقتها وصحة تصورها ودقة الفهم وسداده مع العمل على ما يجلب المنافع ويدفع المضار ويحقق للمرء مراده.

## أهميتها وحاجتنا إليها

من عاش حياته بغير بصيرة فهو إمعة جاهل تائه متحيِّر، لا يعرف الحق من الباطل، والسنة من البدعة فهو يميل مع كل ناعق، ويتبع كل دعيٍّ، ويتلون مع كل متفلِّت مفتون حاله كحال الأعمى الذي يقاد ولا يدري أين يُذهب به فالهلاك إليه أسرع والضلال إليه أقرب، ولذا كان لزامًا علينا أن نستبصر بديننا وأن نحرر مواقع أقدامنا وأن نسير في طريق الهداية المنير على بصيرة من أمرنا ومما يبين لك أهمية البصيرة في حياتنا ما يلي:

### أولًا - البصيرة أساس للدعوة الربانية:

من الأسس الركينة والمعالم القويمة للدعوة النبوية المباركة أنها دعوة على بصيرة وإذا فقدت الدعوة هذا الشرط صار أهلها في تيه وانحراف وتخبط وضلال ولا تكون الدعوة قط صالحة خالصة سديدة رشيدة إلا إذا تحقق فيها هذا الشرط العظيم يقول ربنا العليم الحكيم لنبيه الكريم فيما أنزل عليه من القرآن العظيم: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال الإمام البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ على يقين، والبصيرة هي المعرفة التي تميز بين الحق والباطل، ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ أي: ومن آمن بي وصدقني أيضًا

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٢٤) ط. دار الكتاب العربي.

يدعو إلى الله هذا قول الكلبي وابن زيد قالوا: حق على من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ويذكر بالقرآن، وقيل: تم الكلام عند قوله ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ ثم استأنف: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ يقول: إني على بصيرة من ربي وكل من اتبعني[1]، نعم ليست الدعوة إلى الله تعالى دعوة بلا منهجية وبلا ضابط بل هي دعوة على علم وبصيرة ويقين فالدعاة الربانيون هم المستبصرون بدينهم، المستيقنون بما يريدونه من الناس ويدعونهم إليه فهم يتعلمون دينهم ثم يبثون هذا العلم في الناس، ودعوة بغير بصيرة لن تكون ولن تقوم ولن تثبت وتسير على الهدى المستقيم لأن البصيرة من الفرائض اللازمة التي يجب على العبد أن يحصلها ويسير عليها قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله من كتاب التوحيد فيه مسائل الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.

### ثانيًا- البصيرة صفة الأنبياء ومن اقتدى بهم:

امتدح الله عَزَّوَجَلَّ هذه الصفة في أنبيائه وأثنى عليهم بها وفي ذلك بيان لأهمية هذه السمة وضرورة الاقتداء بهم فيها، ولزوم الأخذ بها لكل سائر في الطريق إلى الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥]، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويعني بالأيدي القوة يقول: أهل القوة على عبادة الله وطاعته، ويعني بالأبصار أنهم أهل أبصار القلوب يعني به أولي العقول[2]، وقال أبو الفداء ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة[3]، وثناء الله على هؤلاء الأنبياء بذلك فيه دعوة لنا وحث لنا على الاقتداء بهم فيه وذلك بأن نكون من أهل البصائر في الدين، وإذا أثنى الله جَلَّجَلَالُهُ على أحدٍ من عباده بشيء فهذا يدل على حب الله له ودعوة الناس أن يتصفوا بذلك الوصف والتحلي بتلك

---

(١) «معالم التنزيل» للبغوي (٤/ ٢٨٤) ط. دار طيبة.

(٢) تفسير الطبري «جامع البيان» (٢١/ ٢١٥) ط. الرسالة.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ٥٠)، ط. دار الفكر.

الصفة قال ابن عثيمين عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويجب أن نعلم أن ثناء الله على أحدٍ من خلقه لا يقصد منه أن يصل إلينا الثناء فقط لكن يقصد منه أمران هامان:

**الأول-** محبة هذا الذي أثنى الله عليه خيرًا.

**الثاني-** أن نقتدي به في هذه الصفات التي أثنى الله بها عليه لأنها محل الثناء ولنا من الثناء بقدر ما اقتدينا به فيها[1]، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول بعد أن ذكر ثمانية عشر نبيًا في سورة الأنعام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١١١]. وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦].

### ثالثًا- إما البصيرة وإما العمى:

من لم تكن له بصيرة فهو أعمى يتخبط في الظلمات ويتيه ويضل عن سواء السبيل فالخلق نوعان: ذو بصيرة تمنعه بصيرته من الزلل والانحراف وآخر أعمى القلب لا يميز الحق من الباطل قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]، قال السعدي: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ ففهم ذلك وعمل به ﴿كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾ لا يعلم الحق ولا يعمل به فبينهما من الفرق كما بين السماء والأرض[2]، وأولئك الذين حرموا البصيرة يتحقق فيهم قول من قال:

**خفافيش أعماها النهار بضوئه ... ووافقها قطع من الليل مظلم**

وقول من قال:

**مثل النهار يزيد أبصار الورى نورًا ... ويعمي أعين الخفافيش**

---

(١) «القول المفيد على كتاب التوحيد باختصار» ص [٦٣] ط. دار ابن الجوزي.

(٢) «تفسير السعدي».

فهم لا يرون الحق وإن اشتد نوره، ولا يهتدون إليه وإن أحاطت بهم حججه؛ لأنهم في ضلالهم يعمهون وفي غيهم يتيهون وهم عن الحق معرضون غافلون، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [فَاطِر: ١٩].

### رابعًا- العمى الحقيقي عمى القلب:

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، قال شيخ المفسرين الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يقول: فإنها لا تعمى أبصارهم أن يبصروا بها الأشخاص ويروها بل يبصرون ذلك بأبصارهم ولكن تعمى قلوبهم التي في صدورهم عن إبصار الحق ومعرفته(١).

وقال ابن زيد في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، ليس بالأصم في الدنيا ولا الأبكم ولكن صم القلوب وبكمها وعميها(٢)، ليس الخلل في المشاعر والحواس ولكن الخلل والفساد في البصائر والعقول والفطر والضمائر التي عميت عن الهداية، وآثرت ظلمات الغواية وغرقت في أقذار الضلالة وكم من أعمى العين هو بصير القلب، عالم بالحق داعية إليه، مستمسك به، مجاهد لنصرته وإعزازه لكن الخطر الحقيقي والخذلان العظيم هو أن يكون مبصرًا بعينه وقلبه أعمى، كم من عبر وعظات، وحكم وآيات مرت بتلك القلوب ولم تعتبر بها! وكم من كلمة للحق دوت في أسماعها ولكنها لم تعقل شيئًا! كم من نصائح ربانية نصحت بها ولكنها لم تهتد ولم تستجب للحق إذ جاءها، عميت عن الحق وهو أمامها وصمت عن الهدى وآثرت الهوى ولذا فإن هذا العمى يصبح يوم القيامة عميً ظاهرًا في الأبصار والبصائر ويكون جزاؤهم من جنس عملهم قال الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَن

(١) «تفسير الطبري» (١٨/ ٦٥٨).

(٢) المصدر السابق (١٣/ ٤٦٠).

أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

ليس الأصمُّ ولا الأعمى سوى رجلٍ ... لم يهده الهاديان العين والأثر

لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفلك ... الأعلى ولا النيِّران الشمس والقمر

ليرحلن عن الدنيا وإن كره ... فراقها الثاويان البدو والحضر

### خامسًا- فاقد البصيرة مذمومٌ أبلغ الذم

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ فإن معناه لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجهنم من خلقه قلوب لا يتفكرون بها في آيات الله ولا يتدبرون بها أدلة وحدانيته ولا يعتبرون بها حججه لرسله فيعلموا توحيد الله ويعرفوا حقيقة نبوة أنبيائهم فوصفهم ربنا جَلَّ جَلَالُهُ بأنهم ﴿ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ لإعراضهم عن الحق وتركهم تدبر نبوة الرسل وبطلان الكفر، وكذلك قوله: ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ معناه ولهم أعين لا ينظرون إلى آيات الله وأدلته فيتأملوها ويتفكروا فيها فيعلمون بها صحة ما تدعوهم إليه رسلهم وفساد ما هم عليه مقيمون من الشرك بالله ولا تكذيب رسله فوصفهم الله بتركهم إعمالها في الحق بأنهم لا يبصرون بها وكذلك قوله: ﴿ وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ آيات كتاب الله فيعتبروها ويتفكروا فيها ولكنهم يعرضون عنها[1].

ويقول الحافظ ابن كثير عليه رحمة الله: قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ يعني ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سببًا للهداية كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٣٢٧) ط. دار الفكر.

وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٨]. هذا في حق المنافقين وقال في حق الكافرين: ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١]. ولم يكونوا صمًا ولا بكمًا ولا عميًا إلا عن الهدى كما قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]. وقال الله تعالى في هؤلاء المعرضين الغافلين وأمثالهم: ﴿ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤]. وقال تعالى في اليهود المغضوب عليهم الذين جحدوا الحق وعاندوه واستكبروا عنه وكذبوا به قال الله فيهم: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾ [الجمعة: ٥]. وهذا الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها وكان من الغاوين وأخلد إلى الأرض واتبع هواه وآثره على الحق قال الله فيه: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِۖ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۡۚ ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. يقول الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ضرب الله تعالى المثل لهذا الخسيس الذي آتاه آياته فانسلخ منها بالكلب ولم تكن حقارة الكلب مانعة من ضربه تعالى المثل به[(١)]، قال ابن عطية في المحرر الوجيز: قال السدى وغيره إن هذا الرجل عوقب في الدنيا بأنه يلهث كما يلهث الكلب فشبه به صورة وهيئة وقال الجمهور إنما شبه به في أنه كان ضالًا قبل أن يؤتى الآيات ثم أوتيها فكان ضالًا أيضًا ولم تنفعه فهو كالكلب في أنه لا يفارق اللهث في حال حمل المشقة عليه وتركه دون حمل عليه[(٢)]، نعوذ بالله من الغفلة والعمى، ونسأله سبحانه الثبات على الهدى، وأن يقينا شر نفوسنا وأن يجنبنا اتباع الهوى.

---

(١) «أضواء البيان» (٢/ ٣٠٣).

(٢) «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (٢/ ٥٤٩) ط. دار الكتب العلمية.

## مشاهد من البصيرة

نور البصيرة إنما يؤتاه المرء بقدر علمه، وبقدر قربه من ربه، وبقدر زكاة نفسه وطهرها، وأعظم الخلق بصيرة أرسخهم إيمانًا بالله وعلمًا بدين الله وشرعه، ولهذا كان سيد الخلق رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو إمام المتقين في هذه الصفة الكريمة وفي كل وصف كريم نبيل، والحديث عن بصيرة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديث طويل بطول السيرة النبوية المباركة، يتطلب منا سردًا وعرضاً لكثير من المواقف العظيمة للنبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوته للناس، وفي غزواته وحروبه، وفي معاملاته وحياته صلوات الله وسلامه عليه، ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينما هو جالسٌ في المسجد والناس معه إذ أقبل نفرٌ ثلاثة فأقبل اثنان إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذهب واحدٌ قال فوقفا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبًا فلما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه**»(١).

وفي الصحيحين كذلك من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل من بني فزارة إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إن امرأتي ولدت غلامًا أسود فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل لك من إبل؟**» قال: نعم، قال: «**فما ألوانها؟**» قال: حمر قال: «**هل فيها من أورق؟**»(٢) قال: إن فيها لورقًا، قال: «**فأنَّى أتاها ذلك؟**» قال: عسى أن يكون نزعه عرق قال: «**وهذا عسى أن**

---

(١) رواه البخاري برقم [٤٧٤]، ومسلم برقم [٢١٧٦].

(٢) الأورق من كل شيء ما كان لونه لون الرماد ومن الناس الأسمر ومن الإبل ما في لونه بياض إلى سواد.

يكون نزعه عرق»[(١)]، أي: يحتمل أن يكون في أجدادها وأصولها جملًا كان هذا لونه فصار لونه هذا كذلك.

وفي حديث كعب بن مالك المشهور والذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما قال كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وكان -أي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعًا وثمانين رجلًا فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جئت فلما سلّمتُ تبسَّم تبسُّمَ المغضب ثم قال: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي «ما خلَّفك؟» ألم تكن قد ابتعت ظهرك قال: قلت: يا رسول الله إني والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر لقد أعطيتُ جدلًا، ولكني والله لقد علمتُ لئن حدثتك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليَّ وإن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه إني لأرجو فيه عقبى الله عَزَّوَجَلَّ والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أما هذا فقد صدق»[(٢)]، فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أما هذا فقد صدق» دليل على أنه يعلم أن أولئك الذين اعتذروا من قبله كانوا كاذبين عدا صاحبيه مرارة بن الربيع وهلال بن أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ومن ذلك ما ورد في الصحيحين عن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله التقى هو والمشركون فلما مال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عسكره ومال الآخرون إلى عسكرهم وفي أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل لا يدع لهم شاذَّة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه فقالوا: ما أجزأ اليوم أحدٌ كما أجزأ فلان فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أما إنه من أهل النار» فقال رجل من القوم: أنا صاحبه قال: فخرج معه كلما وقف وقف

---

(١) رواه البخاري برقم [٥٣٠٥]، ومسلم برقم [١٥٠٠].

(٢) رواه البخاري برقم [٤٤١٨]، ومسلم برقم [٢٧٦٩].

معـه وإذا أسرع أسرع معـه قال: فجُرح الرجل جُرحًا شـديدًا فا سـتعجل الموت فوضع نصل سـيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل على سـيفه فقتل نفسـه فخرج الرجل إلى رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: أشـهد أنك رسـول الله قال: «**وما ذاك؟**» قال: الرجل الذي ذكـرت آنفًا أنـه من أهل النار فأعظم الناس ذلك فقلت أنـا لكم به فخرجت في طلبه ثم جرح جرحًا شـديدًا فاسـتعجل الموت فوضع نصل سيفه في الأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عند ذلك: «**إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنـة فيمـا يبدو للناس وهو مـن أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهـل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة**»(١).

وفي صلـح الحديبيـة حينما طرح المشركون بنودًا جائرة ظالمة على لسـان سـهيل بن عمرو اشتد ذلك على الصحابة حتى جاء عمر إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال له: ألست نبي الله حقًا؟ قال: «بلى» قال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى» قال: فلم نعط الدنية في ديننا إذًا؟ قال: «**إني رسـول الله ولسـت أعصيه وهو ناصري**» قال: أوليس كنت تحدثنا أنا سـنأتي البيت فنطوف به قال: «**بلى فأخبرتك أنا نأتيه العام؟**» قال قلتُ: لا قال: «**فإنك آتيه ومطوف به**»(٢).

## بصيرة الصحابة

أعـلى درجات البصـيرة في هذه الأمة بعد نبيها هي بصيرة الصحابة الكرام قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: أعلى درجات العلم البصيرة التي تكون نسـبة العلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر وهذه هي الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة وهي أعلى درجـات العلماء(٣)، وهذا هو الصديق أبـو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يصدق النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ويوقن

(١) رواه البخاري برقم [٢٨٩٨]، ومسلم برقم [١١٢].
(٢) رواه البخاري برقم [٢٧٣٢].
(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٨١) ط. دار الكتاب العربي بيروت.

ببصيرته النافذة أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن كان قال فقد صدق حتى سُمِّي الصديق صديقًا حينما صدق رسول الله ليلة الإسراء والمعراج.

وفي يوم الحديبية حينما اشتد الأمر بالصحابة وذهب عمر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودار بينهما ذلكم الحوار الذي ذكرناه آنفًا أتى عمر بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، فقال: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقًا؟ قال: بلى، قال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قال: فلم نعط الدنية في ديننا إذًا؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه فوالله إنه لعلى الحق قال: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى أفأخبرك أنك آتيه العام؟ قال: لا قال فإنك آتيه ومطوف به[2]، يالها من بصيرة نافذة آتاها الله هذا الصديق حتى أدرك بها صدق الوعد الذي وعده الله ورسوله وتحقق النصرة لهذا الحق مهما أحاط به من كيد ومكر، ومن روعة هذه البصيرة الصديقية أن تكلم بنفس الكلمات النبوية التي تكلم بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذلك من كمال علم الصديق وطول صحبته للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقربه منه وشدة تأثره به، ورسوخ علمه بهذا الدين ويقينه بأن العاقبة للمتقين، إنه قد رأى وأبصر من وراء هذه الحجب الكثيفة أنه لن يكون إلا الحق ولن يقع في كون الله إلا ما أخبر الله به رسوله وأراده جَلَّ جَلَالُهُ، إن بصيرة الصديق رأت وأيقنت أن وعد الله حق وأنه مهما توالت الخطوب وطالت الحروب، وانتفش الباطل معجبًا بظاهره، مختالًا بقوته فلن يبقى إلا الحق فهو الأقوى والأبقى ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

---

(١) قلت: وهذه إشارة عظيمة إلى فضل الصديق وبصيرة نافذة من عمر بأن أفضل الأمة بعد نبيها هو الصديق لذلك أتاه ولم يأت غيره لتقرر هذا المعنى في نفسه ووثوقه به.

(٢) رواه البخاري برقم [٢٧٣١]، وقد سبق تخريجه قريبًا.

وما أحوجنا لمثل هذا الدرس في هذه الأيام التي استأسدت فيها الفتن وعمت وطمت، وأعمت وأضلت فجديرٌ بنا أن نوقن أن هذا الكيد الخبيث وذلك المكر المقنن مآله إلى زوال وأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، ولن تكون العاقبة قط إلا للمتقين ومهما حورب الإسلام وكيد له ومكر به فلن تستطيع قوة قط أن تمحو نوره أو أن تزيل وجوده لأنه نور الله ومن ذا الذي يطفئ نور الملك جَلَّجَلَالُهُ، إنه لو اجتمعت كل الأفواه وكل العقول وكل الطاقات والإمكانيات لكي تطفئ نور الله فلن تجد لذلك قط سبيلًا قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصَّفّ: ٨-٩]، اطمئن وأيقن أن الله ناصرٌ دينه ولكن أين دورك أنت؟! أين عملك أنت؟! أين سعيك في نصرة الإسلام وإعزازه؟! لن تُسأل يوم القيامة لماذا لم ينتصر الإسلام وإنما ستسأل لماذا لم تَنْصر الدين؟! لماذا تخاذلت عن نصرته؟! لماذا كنت عقبة في سبيل انتشاره؟! لماذا كنت صادًا عن سبيل الله بقولك وعملك، تلك هي القضية ومن قبلها كانت تلك الحقيقة فأين البصيرة التي توقن بها وتعمل لها؟!

نعود إلى الصديق وصدق بصيرته روى البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات وأبو بكر بالسُّنح -قال إسماعيل: تعني بالعالية- فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك وليبعثنه الله فيقطعن أيدي رجال وأرجلهم فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقبله فقال: بأبي أنت طبت حيًا وميتًا، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدًا ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك -يقصد عمر- فلما تكلم أبو بكر جلس عمر فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت وقال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزُّمَر: ٣٠]، وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ

وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. فنشج الناس يبكون[١].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها وأن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعتُه تلاها علمتُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مات[٢].

هكذا كانت بصيرة الصديق نافذة واعية تشبه عين الصقور بل هي أقوى، فيرد الأمة كلها إلى الصواب، ويعيد الحق إلى نصابه ويطلع النفوس على حقائق معلومة مستقرة لكن عيون البصائر ذهلت عنها لهول الفاجعة وشدتها وبقيت بصيرة الصديق قوية راسخة وضاءة منيرة تردُّ العقول إلى وعيها والنفوس إلى رشدها فلله دره ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

ومن مشاهد البصيرة العظيمة في حياة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حُسن اختياره للخليفة من بعده فقد وقع اختياره على خير من يقوم بهذه المهمة من بعده ذلكم هو الفاروق عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كانت خلافته فتحًا من الفتوح، وخيرًا وبركة على الإسلام والمسلمين فقد كتب أبو بكر كتابًا في مرض موته أملاه على عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال له: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافه في آخر عهده بالدنيا خارجًا منها وأول عهده بالآخرة داخلًا فيها حين يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب، إني استخلفتُ عليكم -ثم أغشي عليه- فكتب عثمان: إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فلما أفاق أبو بكر قال: اقرأ علي فقرأ عليه فكبر وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسي في غشيتي؟ قال: نعم قال: جزاك الله خيرًا عن

(١) رواه البخاري برقم [٣٦٦٨].

(٢) رواه البخاري برقم [٤٤٥٤].

الإسلام وأهله، وأقرها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأمره فخرج على الناس بالكتاب فبايعوه لمن فيه فلما علموا أنه عمر دخل عليه قوم فقالوا: ما تقول لربك إذا سألك عن استخلافك عمر وأنت ترى غلظته؟ فقال: أجلسوني، أبالله تخوفوني، خاب من تزود من أمركم بظلم أقول: استخلفت عليهم خير أهلك ثم دعا عمر وأوصاه[(١)].

ومنها قضية أسارى بدر حيث أنزل الله عَزَّوَجَلَّ قرآنًا يوافق ما قاله ابن الخطاب فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنفال: ٦٧].

ومن ذلك الصلاة على عبد الله بن أبي ابن سلول حيث كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشير على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويلحُّ عليه في عدم الصلاة عليه وبعد أن صلى عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزل عليه قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة: ٨٤]، وكل هذه الموافقات وغيرها في الصحيحين أو أحدهما.

وروى مالك في الموطأ من حديث يحيى بن سعيد: أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لرجل: ما اسمك؟ قال: جمرة فقال: ابن من؟ قال: ابن شهاب قال: ممن؟ قال: من الحرقة، قال: أين مسكنك؟ قال: بحرَّة النار، قال: بأيِّها؟ قال: بذات لظى، قال عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا، قال: فكان كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: كان الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أعظم الأمة فراسة وبعده عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ووقائع فراسته مشهورة فإنه ما قال لشيءٍ أظنه كذا إلا كان كما قال ويكفي في فراسته موافقته ربه في المواضع المعروفة، ومرَّ بعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سواد بن قارب ولم يكن يعرفه فقال: لقد أخطأ ظني؛ وإن هذا كاهن أو كان يعرف الكهانة في الجاهلية فلما جلس بين يديه قال له ذلك عمر فقال: سبحان الله يا أمير المؤمنين ما استقبلت أحدًا

---

(١) أخرجه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٤/ ١٥٧) وصححه ابن حجر في «المطالب العالية» [٤٣١٣].

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٧٣) برقم [١٧٥٣] ط. دار إحياء التراث العربي.

من جلسائك بمثل ما استقبلتني به فقال له عمر: ما كنا عليه في الجاهلية أعظم من ذلك ولكن أخبرني عما سألتك عنه فقال: صدقت يا أمير المؤمنين كنت كاهنًا في الجاهلية[١].

وانظر إلى هذه البصيرة النافذة والنصيحة الصادقة من عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في الصحيح من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن عبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لو رأيت رجلًا أتى أمير المؤمنين اليوم فقال: يا أمير المؤمنين هل لك في فلان يقول لو قد مات عمر لقد بايعتُ فلانًا فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فتمت، فغضب عمر ثم قال: إني إن شاء الله لقائم العشية في الناس فمحذرهم من هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم قال عبد الرحمن: فقلت يا أمير المؤمنين، لا تفعل فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيِّرها عنك كلُّ مطيِّر وأن لا يعوها وأن لا يضعوها على مواضعها فأمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس فتقول ما قلت متمكنًا فيعي أهل العلم مقالتك ويضعوها على مواضعها فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة.....»[٢].

وهذه نصيحة صادقة خالصة واعية يمحضها عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وينقذ الأمة من فتنة رآها بعين بصيرته وأقره عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وتأمل هذه البصيرة الواعية من الفقيه التقي القارئ المتقن والعالم الراسخ في العلم عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ففي سنن الدارمي وغيره بسند صحيح عن عمرو بن يحيى قال سمعت أبي يحدث عن أبيه قال: كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال: أخرج إليكم أبو عبد الرحمن بعد؟ قلنا: لا، فجلس معنا حتى خرج فلما خرج قمنا إليه جميعًا فقال له

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٨٦) ط. دار الكتاب العربي.

(٢) رواه البخاري برقم [٦٨٣٠].

أبو موسى: يا أبا عبد الرحمن إني رأيت في المسجد آنفًا أمرًا أنكرته، ولم أر والحمد لله إلا خيرًا قال: فما هو؟ فقال: إن عشت فستراه، قال: رأيت في المسجد قومًا حلقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصا فيقول: كبروا مائة فيكبرون مائة فيقول: هللوا مائة فيهللون مائة ويقول: سبحوا مائة فيسبحون مائة، قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئًا انتظار رأيك، وانتظار أمرك، قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم ألا يضيع من حسناتهم ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم، فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟! قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصا نعد بها التكبير والتهليل والتسبيح قال: فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن ألا يضيع من حسناتكم شيء ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم، هؤلاء صحابة نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد أو مفتتحو باب ضلالة قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير، قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حدثنا أن قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وايم الله ما أدري لعل أكثرهم منكم ثم تولى عنهم فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك الحلق يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج[1].

نعم إنه الفهم الثاقب والبصيرة القوية التي يؤتيها الله عباده المؤمنين ثمرة لإيمانهم وعلمهم ويقينهم، إن البصيرة لا تحصل إلا بالعلم والعبادة، وكلما كان العبد من الله أقرب وعلى الفرائض والسنن أحرص كلما قويت بصيرته لأنه يكون حينئذٍ مسددًا موفقًا؛ فإن الله إذا أحب عبدًا عصمه من السوء والزلل كما في الحديث القدسي الذي يتكرر معنا مرارًا «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به**» وإنما تأتي هذه المحبة من صدق التعبد والتفقه والتعلم كما في هذا الحديث أيضًا: «**وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته**

---

(١) «سنن الدارمي» (١/ ٧٩) برقم [٢٠٤]، ط. دار الكتاب العربي، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم [٢٠٠٥].

عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه» والحديث رواه البخاري في صحيحه. الشاهد أن الصحابة الكرام لما كان علمهم وبصيرتهم أقوى وفهمهم أدق وأعلى، كانوا أكثر الناس استجابة لدين الله وشرعه وأكثر الخلق تضحية في سبيل الله؛ لذلك نالوا ما نالوا.

## صفحات منيرة بمشاهد من البصيرة

قبل طرح المواقف المتعددة من حياة الصالحين اسمحوا لي إخوتي الكرام أن أشير إلى بصيرة نبي كريم من أنبياء الله، إنه الكريم بن الكريم بن الكريم يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم حيث قال الله جَلَّ جَلَالُهُ عنه في ذلك: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [ يُوسُف: ١٨].

إنه نبي كريم زكي النفس، ذكي العقل بصير القلب، لم تنطلِ عليه هذه الفرية وتلك الكذبة لأنه رأى من القرائن والأحوال ومن رؤيا يوسف التي قصها عليه ما دلَّه على ما قال ومن طريف من دله على كذبهم أنهم ذبحوا شاة ولطخوا بها قميص يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لكنهم نسوا أن يخرقوا القميص أو يحدثوا به شقوقًا فلله در يعقوب النبي الكريم الصابر الموقن صلوات الله وسلامه عليه.

### بصيرة رجل من خير الناس:

ومن مشاهد البصيرة في حياة الصالحين الصادقين ما قصه علينا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والحديث في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: حدثنا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا حديثًا طويلًا عن الدجال فكان فيما حدثنا قال: «يأتي وهو محرمٌ عليه أن يدخل نقاب المدينة فينتهي إلى بعض السباخ التي تلي المدينة فيخرج إليه يومئذٍ رجل هو خير الناس أو من خير الناس» فيقول له: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثه فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون في الأمر؟ فيقولون: لا قال فيقتله ثم يحييه فيقول حين يحييه: والله ما كنت فيك قط أشد

بصيرة مني الآن قال: فيريد الدجال أن يقتله فيسلط عليه[١]، إنها البصيرة النافذة التي ترى الحق واضحًا جليًا، ولا ينخدع صاحبها بتهافت الناس في الضلال ،وسقوطهم في الحيرة والتردد فهذا البصير يوقن بالحق ويراه رأي العين ولا يبالي بشيءٍ في سبيل نصرته وإعزازه ولو اقتضى الأمر نزع الروح وبذل النفس فمن الحق الثبات على الحق بحق، فلله در ذلك الشاب الذي يصبر على عذاب حاضر لأنه يرى من ورائه نعيمًا مقيمًا ثم لا يزيده ذلكم القتل إلا بصيرة ونورًا فيخاطب الدجال بكل ثقة ويقين: والله ما كنت فيك قط أشد بصيرة مني الآن.

**بصيرة إياس:**

ومن أهل العلم الذين آتاهم الله بصيرة نافذة وفراسة صادقة وفهمًا ثابتًا إياس بن معاوية وكان يُضرب به المثل في الذكاء كما قيل:

**إقدام عمرو في سماحة حاتم  في حلم أحنف في ذكاء إياس**

ومن مواقفه في ذلك ما يلي: في مجلس القضاء دخل عليه ثلاث نسوة فقال: أما واحدة فمرضع والأخرى بكر، والأخرى ثيب فقيل له: كيف علمت؟ قال: أما المرضع فلما جلست أمسكت ثديها بيدها، وأما البكر فلما دخلت لم تلتفت إلى أحد، وأما الثيب فلما دخلت نظرت ورمت بعينيها[٢].

قال إياس بن معاوية: كنت في مكتب بالشام وكنت صبيًا فاجتمع النصارى يضحكون من المسلمين وقالوا: إنهم يزعمون أنه لا يكون تفل للطعام في الجنة قال قلت: يا معلم ألست تزعم أن أكثر الطعام يذهب في البدن؟ فقال: بلى، قلت: فما ينكر أن يكون الباقي يذهبه الله في البدن كله، فقال: أنت شيطان.

---

(١) رواه البخاري برقم [٧١٣٢]، ومسلم برقم [٢٩٣٨].

(٢) «تهذيب الكمال» للمزي (٣/ ٤٧) ط. الرسالة، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (١٠/ ١٣) ط. دار الفكر.

وقال حماد بن زيد عن حبيب بن الشهيد عن إياس بن معاوية قال: ما خصمت أحدًا من أهل الأهواء بعقلي كله إلا القدرية قال قلت: فإن الله تعالى له كل شيء[١].

وعن إبراهيم البصري قال: جاء رجلان إلى إياس بن معاوية يختصمان في قطيفتين إحداهما حمراء والأخرى خضراء فقال أحدهما: دخلت الحوض لأغتسل ووضعت قطيفتي وجاء هذا فوضع قطيفته تحت قطيفتي ثم دخل فاغتسل فخرج قبلي فأخذ قطيفتي فمضى بها ثم خرجتُ فتبعته فزعم أنها قطيفته فقال: ألك بينة؟ قال: لا، قال: ائتوني بمشط فأتي فسرح رأس هذا ورأس هذا فخرج من رأس أحدهما صوف أحمر ومن رأس الآخر صوف أخضر فقضى بالحمراء للذي خرج من رأسه الصوف الأحمر وبالخضراء للذي خرج من رأسه الصوف الأخضر[٢].

قال أبو الحسن المدائني: تنازع إلى إياس رجلان ادعى أحدهما أنه أودع صاحبه مالًا وجحده الآخر فقال إياس للمدعي: أين أودعته هذا المال؟ قال: في موضع كذا وكذا قال: وما كان في ذلك الموضع؟ قال شجرة قال: فانطلق فالتمس مالك عند الشجرة فلعلك إذا رأيتها تذكر أين وضعت مالك فانطلق الرجل وقال إياس للمطلوب: اجلس إلى أن يجيء صاحبك فجلس فلبث إياسٌ مليًا يحكم بين الناس ثم قال للجالس عنده: أترى صاحبك بلغ الموضع الذي أودعك فيه؟ قال: لا فقال: يا عدو الله إنك لخائن فأقر عنده فحبسه حتى جاء صاحبه ثم أمره بدفع الوديعة إليه.

قال: وأودع رجلٌ رجلاً كيسًا فيه دنانير فغاب خمس عشرة سنة ثم رجع وقد فتق المودع الكيس من أسفله فأخذ ما فيه وجعل مكانه دراهم[٣]. والخاتم على حاله فنازعه فقال إياس: مذ كم أودعته؟ قال: من خمس عشرة سنة فسأل المودع فقال: صدق فأخرج

---

(١) «تاريخ دمشق» (١٠/ ١٥).

(٢) «تهذيب الكمال» (٣/ ٤٢٣-٤٢٤).

(٣) الدنانير من ذهب والدراهم من فضة.

الدراهم فوجد فيها ما ضرب منذ عشر سنين أو خمس سنين فقال للمودع: أقررت أنه أودعك منذ خمس عشرة سنة وهذا ضربٌ أحدث مما ذكرت فأقر له بوديعته وردها عليه.

وعن إبراهيم بن مرزوق البصري قال: كنا عند إياس بن معاوية قبل أن يستقضى قال: وكنا نكتب عنه الفراسة كما نكتب عن صاحب الحديث الحديث قال: إذا جاء رجل فجلس على دكان مرتفع بالمربد فجعل يترصد الطريق فبينما هو كذلك إذ نزل فاستقبل رجلًا فنظر في وجهه ثم رجع إلى موضعه قال فقال إياس: قولوا في هذا الرجل قالوا: ما نقول؟ رجل طالب حاجة قال فقال: هذا معلم صبيان قد أبق له غلامٌ أعور فإن أردتم أن تستفهموه ذلك فقوموا إليه فاسألوه قال فقام إليه بعضنا فقال له: إنا نراك منذ اليوم ألك حاجة تستعين بنا على حاجتك؟ قال فقال: لي غلامٌ نسَّاج كان يغل علينا وقد زاغ منذ أيام قال فقالوا: صف لنا غلامك وصف لنا موضعك فقال: أما أنا فأعلم الصبيان بالكلأ وأما غلامي فغلامٌ من صفته كذا وكذا إحدى عينيه ذاهبة قال: فرجعنا إليه فقلنا له كما قلت ولكن كيف علمت أنه معلم صبيان؟ قال: رأيته جاء يطلب موضعًا يجلس فيه، فعلمت أنه يطلب عادته في الجلوس فنظر إلى أرفع شيء يقدر عليه فجلس عليه فنظرت في قدره فإذا ليس قدره قدر الملوك فنظرت فيمن اعتاد في جلوسه جلوس الملوك فلم أجدهم إلا المعلمين، فعلمت أنه معلم صبيان، فقلنا: كيف علمت أنه أبق له غلامٌ أعور قال: إني رأيته يترصد الطريق فبينما هو كذلك إذ نزل فاستقبل رجلًا قد ذهبت إحدى عينيه فعلمت أنه شبهه بغلامه[1].

وأتى دهقان إلى إياس فقال: يا أبا واثلة، ما تقول في المسكر؟ قال: حرام قال: وما حرمه وإنما هو تمر وماء والحشو قال: فرغت يا دهقان؟ قال: نعم فقال: أرأيت لو أخذت كف ماء فضربتك به كان يوجعك؟ قال: لا، فقال: أرأيت لو أخذت كف تراب

(١) «تهذيب الكمال» (٣/ ٤٢٦).

فضربتك به كان يوجعك؟ قال: لا، فقال: أرأيت لو أخذت كف تبن فضربتك به كان يوجعك قال: لا ، قال: فأخذت ترابًا فطرحت عليه التبن ثم صببت عليه الماء ثم غمرته غمرًا ثم جعلته في الشمس ثم ضربتك به كان يوجعك؟ قال: نعم ويقتلني قال: فكذلك هذا حين جمعت أخلاطه وخمرت حرم[1].

### بصيرة البصري:

ومن أهل البصائر النافذة ذلك العالم البصير الحسن البصري أبو سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن ذلك أنه جاءه جماعة من المسلمين يستفتونه في الخروج على الحجاج فقالوا: يا أبا سعيد، ما تقول في قتال هذا الطاغية الذي سفك الدم الحرام وأخذ المال الحرام... وفعل وفعل؟ فقال الحسن: أرى أن لا تقاتلوه، فإنها إن تك عقوبة من الله فما أنتم برادي عقوبة الله بأسيافكم وإن يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، وخرجوا من عند الحسن ولم يوافقوه فخرجوا على الحجاج فقتلوا جميعًا، ولهذا كان الحسن يقول: لو أن الناس إذا ابتلوا من قبل سلطانهم صبروا ما لبثوا أن يفرج عنهم ولكنهم يجزعون إلى السيف فيوكلون إليه فوالله ما جاءوا بيوم خير قط[2]، وهذا الموقف يبين بصيرة العلماء وما آتاهم الله عَزَّوَجَلَّ من فهم وحكمة ينبغي أن تتبع وأن يسير الناس على منوالها؛ لأن الانحراف عن منهج العلماء يجر الناس إلى ويلات وفتن عظيمة بل وإزهاق للأرواح وفساد عريض فينبغي على الناس جميعًا أن يسترشدوا بكلام العلماء وأن يتبعوهم لأنهم أعلم الخلق بدين الله وهم أعرف الناس بما يضر وما ينفع.

### بصيرة إمام دار الهجرة:

ومن أهل البصائر الحكيمة النافذة الإمام مالك بن أنس الأصبحي إمام الهجرة ومن مواقفه في ذلك ما أورده أبو نعيم في «الحلية» و«الذهبي في السير» أن رجلًا جاء

---

(١) «تاريخ دمشق» (١٠/ ٢٢).

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٧/ ١٦٣-١٦٥) ط. دار صادر.

إليه وقال: يا أبا عبد الله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته فنظر إلى الأرض وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرحضاء ثم رفع رأسه ورمى بالعود وقال: الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة وأمر به فأخرج[1].

وهذا المشهد يبين رسوخ علم مالك ووعيه وفهمه لخطورة الابتداع في الدين وهذا مما ينبغي على أهل العلم قاطبة أن يحرصوا عليه لابد من وأد البدع، وسحق آثارها، ودمدمة مظاهرها، ولزامًا على كل عالم أن يسارع إلى القضاء على كل بدعة في أول ظهورها حتى لا تقوم لها قائمة؛ فإنها متى قامت في الناس بدعة هدمت من حياتهم سنة، لاسيما إذا كانت البدعة كهذه التي تصدى لها مالك؛ فإن فيها هدمًا للعقيدة وحربًا لأصول التوحيد والرسالة النبوية المباركة، وبمثل هؤلاء العلماء يحرس الدين وتحفظ معالمه بإذن الله، وبجهادهم تثبت دعائمه وتبقى في قلوب الناس عظمته وجلاله.

ومن بصيرته وفهمه ووعيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا المشهد قال الحافظ ابن عبد البر في التمهيد هذا ما كتبته من حفظي وغاب عني أصلي: إن عبد الله العمري العابد كتب إلى مالك يحضه على الانفراد والعمل فكتب إليه مالك: إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر[2].

ومن جليل وجميل ما يذكر في بصيرة هذا الإمام الفذ رؤيته لمخايل النجابة والنبل في الشافعي محمد بن إدريس عليه رحمة الله الذي صار إمامًا لا يضاهى، وعالمًا لا يبارى يقول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما سرتُ إلى المدينة ولقيت مالكًا وسمع كلامي نظر إليَّ ساعة

(١) «الحلية» لأبي نعيم (٦/ ٣٢٥)، و «السير للذهبي» (٨/ ١٠٠)ط. الرسالة.
(٢) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٥/ ١١٥) ط. الرسالة.

-وكانت له فراسة- ثم قال لي: ما اسمك؟ قلت: محمد قال: يا محمد، اتق الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن من الشأن[١].

رحم الله مالكًا ولله در من قال فيه:

**يأتي الجواب فما يراجع هيبة ... والسائلون نواكس الأذقان**

**أدب الوقار وعز سلطان التقى ... فهو المطاع وليس ذا سلطان**

**بصيرة ابن سيرين:**

وممن آتاهم الله بصيرة الإمام محمد بن سيرين ذلكم الإمام الذي اشتهر بنظره الثاقب في تأويل الرؤى ومن ذلك ما يلي: عن عبد الله بن مسلم المروزي قال: كنت أجالس ابن سيرين فتركته وجالست الإباضية، فرأيت كأني مع قوم يحملون جنازة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأتيت ابن سيرين فذكرته له فقال: مالك جالست أقوامًا يريدون أن يدفنوا ما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعن هشام بن حسان قال: قصَّ رجل على ابن سيرين فقال: رأيت كأن بيدي قدحًا من زجاج فيه ماء فانكسر القدح وبقي الماء فقال له: اتق الله فإنك لم تر شيئًا فقال: سبحان الله قال ابن سيرين: فمن كذب فيما على، ستلد امرأتك وتموت ويبقى ولدها فلما خرج الرجل قال: والله ما رأيت شيئًا فما لبث أن ولد له وماتت امرأته.

قال: ودخل آخر فقال: رأيت كأني وجارية سوداء نأكل في قصعة سمكة قال: أتهيِّئ لي طعامًا وتدعوني؟ قال: نعم ففعل، فلما وضعت المائدة إذا جارية سوداء فقا له ابن سيرين: هل أصبت هذه؟ قال: لا قال: فادخل بها المخدع فدخل وصاح: يا أبا بكر، رجلٌ والله، فقال: هذا الذي شاركك في أهلك[٢].

---

(١) «الإمام مالك» للشيخ محمد أبي زهرة ص [٨٧] ط. دار الفكر العربي.

(٢) «السير للذهبي» (٥/ ٤٨٣-٤٨٤) ط. التوفيقية ومعنى أصبت هذه أي جامعتها وقال الذهبي عقب إيراد ذلك: قد جاء عن ابن سيرين في التعبير عجائب يطول الكتاب بذكرها وكان له في ذلك تأييد إلهي.

وعن أبي قلابة أن رجلًا قال لأبي بكر [ابن سيرين]: رأيت كأني أبول دمًا، فقال: أتأتي امرأتك وهي حائض؟ قال: نعم قال: اتق الله ولا تعد.

وعن أبي جعفر عن ابن سيرين أن رجلًا رأى في المنام كأن في حجره صبيًا يصيح فقص رؤياه على ابن سيرين قال: اتق الله ولا تضرب العود.

وعن مبارك بن يزيد البصري قال: قال رجل لابن سيرين: رأيت كأني أطير بين السماء والأرض قال: أنت رجل تكثر المُنى[(١)].

ومن المواقف التي تبين بصيرة هذا الإمام النافذة ما ورد عن عمر بن عبد العزيز قال سمعت محمد بن سيرين وسمع عمن يسمع القرآن فيصعق قال: ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن سقطوا فهم كما يقولون[(٢)].

وعن ابن عون قال: جاء رجلٌ إلى محمد أي ابن سيرين فذكر له شيئًا في القدر فقال محمد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، قال: ووضع إصبعي يديه في أذنيه وقال: إما أن تخرج عني وإما أن أخرج عنك قال: فخرج الرجل فقال محمد: إن قلبي ليس بيدي وإني خفت أن ينفث في قلبي شيئًا فلا أقدر على إخراجه منه، فكان أحب إليَّ أن لا أسمع كلامه[(٣)].

### بصيرة الشافعي الإمام:

ومن أهل البصائر النافذة الإمام الشافعي محمد بن إدريس عليه رحمة الله فعن الربيع بن سليمان قال: دفع إليَّ الشافعي دراهم لأشتري له حملًا وأمرني أن أشوي ذلك

---

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٢/ ٢٢٧-٢٧٧-٢٧٨) ط. مكتبة السعادة.

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٦٥).

(٣) «الطبقات» لابن سعد (٧/ ١٩٧) ط. دار صادر.

قال: فنسيت واشتريت سمكتين وشويتهما فأتيته بهما، فنظر فقال: يا أبا محمد كلهما فقد اشتهيتهما[١].

وعن حرملة بن يحيى قال: سمعت الشافعي يقول في رجل قال لامرأته وفي فيها تمرة إن أكلتيها فأنت طالق وإن طرحتيها فأنت طالق قال: تأكل نصفها وتطرح نصفها[٢].

ومن مشاهد البصيرة ما ذكره القرطبي في تفسيره حيث قال: روي عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما كانا بفناء الكعبة ورجل على باب المسجد فقال أحدهما: أراه نجارًا وقال الآخر: بل حدادًا فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال: كنت نجارًا وأنا اليوم حداد.

وروي عن الحسن البصري أنه دخل عليه عمرو بن عبيد فقال: هذا سيد فتيان البصرة إن لم يحدث فكان من أمره في القدر ما كان حتى هجره عامة إخوانه.

وروي عن الشعبي أنه قال لداود الأزدي وهو يماريه: إنك لا تموت حتى تكوى في رأسك وكان كذلك[٣].

وقال يونس قلت للشافعي: صاحبنا الليث يقول: لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء ما قبلته قال: قَصَّر، لو رأيته يمشي في الهواء لما قبلته[٤].

وقال أبو يحيى زكريا الساجي حدثنا المزني قال قلت: إن كان أحد يخرج ما في ضميري وما تعلق به خاطري من أمر التوحيد فالشافعي فصرت إليه وهو في مسجد مصر فلما جثوت بين يديه، قلت: هجس في ضميري مسألة في التوحيد، فعلمت أن أحدًا

---

(١) «مناقب الشافعي» للإمام البيهقي (٢/ ٣٣٤) ط. دار التراث.

(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٤٠).

(٣) «تفسير القرطبي» (١٠/ ٣٥) ط. التوفيقية.

(٤) «السير للذهبي» (٨/ ٣٨٧) ط. التوفيقية.

لا يعلم علمك فما الذي عندك؟ فغضب ثم قال: أتدري أين أنت؟ قلت: نعم قال: هذا الموضع الذي أغرق الله فيه فرعون أبلغك أن رسول اله ﷺ أمر بالسؤال عن ذلك؟ قلت: لا، قال: هل تكلم فيه الصحابة؟ قلت: لا، قال: تدري كم نجمًا في السماء؟ قلت: لا، قال: فكوكب منها تعرف جنسه، طلوعه، أفوله، مم خلق؟ قلت: لا، قال: فشيءٌ تراه بعينك من الخلق لست تعرفه تتكلم في علم خالقه؟! ثم سألني عن مسألة في الوضوء فأخطأت فيها ففرَّعها على أربعة أوجه فلم أصب في شيء منه فقال: شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرات تدع علمه وتتكلف علم الخالق، إذا هجس في ضميرك ذلك فارجع إلى الله وإلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٣-١٦٤]، فاستدل بالمخلوق على الخالق ولا تتكلف علم ما لم يبلغه عقلك قال: فتبتُ[١].

قال الحميدي عبد الله بن الزبير سمعت مسلم بن خالد الزنجي ومر على الشافعي وهو يفتي وهو ابن خمس عشرة سنة فقال: يا أبا عبد الله أفتِ فقد آن لك أن تفتي.

وقال صالح بن أحمد بن حنبل: مشى أبي مع بغلة الشافعي فبعث إليه يحيى بن معين فقال له: يا أبا عبد الله أما رضيت إلا أن تمشي مع بغلته فقال: يا أبا زكريا لو مشيت من الجانب الآخر كان أنفع لك[٢].

---

(١) «السير للذهبي» (٨/ ٣٩١).

(٢) «تهذيب الكمال» للحافظ المزي (١٦/ ٤٧-٤٩) ط. دار الفكر.

**بصيرة الإمام أحمد:**

ومن أهل البصائر النافذة، والعقول الواعية، والقلوب الحية اليقظة، ذلكم الإمام المبجَّل أحمد بن حنبل الذي بذل نفسه لله وثبت على العقيدة الصحيحة حتى نصر الله به الحق وأعلى منار أهل السنة وذلك بعد أن ذاق العذاب الأليم وتجرع غصص البلاء ولكن هانت عليه نفسه في الله، وناظر أهل البدعة ودحض إفكهم وأبطل اعتقادهم الفاسد وذلك ببصيرته الواعية قال له أحد المعتزلة يناظره بحضرة الخليفة: ما تقول في القرآن؟ قال أحمد: فسكت فقال الخليفة: أجبه فقلت له: ما تقول في علم الله عَزَّوَجَلَّ ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله فسكت فقال الحاضرون للمعتصم (الخليفة): يا أمير المؤمنين أكفرنا وأكفرك فلم يلتفت إلى ذلك منهم فقيل لأحمد: كان الله ولا قرآن فقال أحمد: أكان الله ولا علم؟ فأمسك ولو زعم أن الله كان ولا علم كفر[1].

وقال إسحاق بن حنبل - عم الإمام أحمد-: كنت أتكلم مع أصحاب السلطان والقواد في خلاص أبي عبد الله، فلم يتم لي أمر فاستأذنت على إسحاق بن إبراهيم فدخلت إليه وكلمته فقال لحاجبه: اذهب معه إلى ابن أخيه ولا يكلم ابن أخيه بشيءٍ إلا أخبرتني به قال إسحاق: فدخلت على أبي عبد الله ومعي حاجبه فقلت: يا أبا عبد الله قد أجاب أصحابك وقد أعذرت فيما بينك وبين الله، وبقيت أنت في الحبس والضيق فقال أبو عبد الله: يا عم إذا أجاب العالم تَقِيَّة والجاهل بجهلٍ متى يتبين الحق؟! قال: فأمسكت عنه[2].

وذكر ابن الجوزي بسنده إلى عبيد الله بن عبد الرحمن الزهري قال: قال المروزي: قال لي أبو عبد الله وهو بين الهنبازين: اخرج انظر أي شيءٍ ترى؟ قال: فخرجت إلى رحبة دار الخليفة فرأيت خلقًا من الناس لا يحصى عددهم إلا الله، والصحف والأقلام

(١) «الجوهر المحصل» في مناقب أحمد بن حنبل ص [٨٩] ط. هجر.

(٢) المصدر السابق ص [٧٤] نقلًا عن ذكر المحنة لحنبل بن إسحاق ص [٤١].

في أيديهم، والمحابر في أذرعتهم، فقال لهم المروزي: أي شيءٍ تعملون؟ فقالوا: ننتظر ما يقول أحمد فنكتبه فدخل المروزي إلى أبي عبد الله وهو قائم بين الهنبازين فقال: رأيت قومًا بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه فقال: يا مروزي أضل هؤلاء كلهم؟ أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء كلهم.

قال الحافظ أبو الفرج قلت: هذا رجل هانت عليه نفسه في الله عَزَّوَجَلَّ كما هانت على بلال نفسه، وقد روينا عن سعيد بن المسيب أنه كانت عليه نفسه في الله تعالى أهون من نفس ذباب، وإنما تهون عليهم أنفسهم لعلمهم بالعواقب فعيون البصائر ناظرة إلى المآل لا الحال، وشدة ابتلاء أحمد دليل على قوة دينه؛ لأنه قد صح عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**يبتلى الرجل على حسب دينه**»[(١)]، فسبحان من أيده وبصَّره، وقوَّاه ونصره[(٢)].

قال إسحاق بن راهويه: لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لما بذلها له لذهب الإسلام[(٣)].

قال الحافظ ابن حجر: قال ابن حبان في الثقات [أي عن الإمام أحمد]: كان حافظًا متقنًا فقيهًا ملازمًا للورع الخفي مواظبًا على العبادة الدائمة أغاث الله به أمة محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وذلك أنه ثبت في المحنة وبذل نفسه لله حتى ضُرب السياط وعرض للقتل، فعصمه الله تعالى عن الكفر وجعله علمًا يقتدى به وملجأ يلجأ إليه[(٤)].

أيها الإخوة، العالم حقًا من كان الحق أحب إليه من نفسه وأثمن عنده من حياته، وسمة الصادقين من العلماء الصدع بالحق والاستمساك به وإيثار ما يرضي الله، والثبات على دينه، والأمة إنما نستمد ثباتها بثبات علمائها فهم ضمير الأمة وعقولها فإذا صلحوا

---

(١) رواه الترمذي برقم [٢٣٩٨] وأحمد (١/ ١٧٢)، وهو صحيح -سوف يأتي تخريجه قريبًا.

(٢) «الجوهر المحصل» ص [٨٦-٨٧] نقلًا عن «مناقب أحمد» لابن الجوزي ص [٤٠٨-٤٠٩].

(٣) «تهذيب الكمال» (١/ ٢٣٨) ط. دار الفكر.

(٤) «تهذيب التهذيب» (١/ ٦٥).

صلحت الأمة بصلاحهم، وارتفعت مكانتها ومنزلتها بين الأمم، تأمل كيف أن ابن تيمية ببصيرته النافذة قام بتحريض الأمراء والعامة على التصدي للتتار، وارتاب الناس في حكم قتالهم حتى قال شيخ الإسلام: لو رأيتموني في صف التتر مواليًا لهم وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجع الناس في قتال التتر وقويت قلوبهم، وتأمل كيف كشف السنوسي زيف دعوى المهدي السوداني، وكيف كشف الألباني وابن باز ببصيرة نافذة زيف دعوى المهدي القحطاني[1].

## من مجالات البصيرة

إن صاحب القلب الحي يرى ببصيرته حقائق هذا الوجود من وراء الحجب الكثيفة، يراها واضحة بينة، ولا يعتريه شك أو ارتياب ولا تعيمه شبهة أو فتنة؛ لأنه يبصر الحق في نقائه وبقائه، ويؤثره ويحيا عليه ويعلم أن الباطل مهما بدا قويًا متجبرًا فهو زاهق زائل وأنه لا يبقى إلا الحق قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١]، ولقد صارت البصيرة متحتمة علينا في هذا العصر أكثر من ذي قبل وذلك لما يشاهد فيه من متناقضات وشبهات، وكثرة الفتن وتنوعها وشدتها، ووجود طوائف مضلة ضالة تدعو إلى ضلالها، وتنشر بين الناس إفكها وخبثها، ألا فليعلم كل مسلم أن الحق واحد لا يتعدد وأن الحق لا يمكن أن يكون إلا في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ ولا ينضبط فهم القرآن ولا السنة إلا بفهم الصحابة الذين نزل القرآن على رسول الله ﷺ وهم معه يربيهم به ويعلمهم إياه فأخذوه من النبي ﷺ صافيًا ثم ورث الفهم السديد الرشيد من الصحابة التابعون من بعدهم ثم تلقاه تابعو التابعين عن التابعين فتلك هي القرون الثلاثة التي شهد لها رسول الله ﷺ بالخيرية وهي التي ينبغي أن نفهم الوحي قرآنًا وسنة في ضوء فهمهم هم فإن منهجهم وطريقتهم هي الأسلم والأقوم

(١) انظر «بصائر في الفتن» ص [٢٧] ط. العالمية.

والأعلم والأحكم والأرضى لله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن المجالات التي لابد أن تكون فيها البصيرة مايلي:

### أولًا - البصيرة بحقيقة التوحيد:

حياة المرء بعقيدته وإيمانه وأوجب الواجبات على المؤمنين هو تصحيح العقيدة فهي الأصل والأساس، إن كلمة التوحيد منهج حياة، تحكم المسلم في كل موطن من مواطن حياته، فهو على يقين بأنه لا يملك النفع والضر إلا الله ولذا فهو لا يمكن أبدًا أن يلتفت إلى سواه أو يدعو غير ربه ومولاه قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٧-١٨]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا سألت فسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[(١)]، هذا هو نور الحق الذي ينبغي أن يشرق في القلوب، وينبغي أن ننشره في الأمة، لاسيما ونحن لا نزال نرى أناسًا عميت بصائرهم، وضلت عقولهم، وراحوا يطوفون بقبور الصالحين وأضرحة الميتين، وينذرون لها ويذبحون، بأعتابها يتمسحون وإياها من دون الله يدعون، ويشدون الرحال إليها وهم لها عاكفون، فبئس ما يصنعون! وإذا ناقشت القوم وجدتهم يقولون: إن صاحب الضريح له كرامات ومعجزات، وكم شفى من مريض ورد من غائب! أقول: لقد أغواكم الشيطان وأضلكم، وعن طريق الهدى والحق أبعدكم وفي

---

(١) رواه الترمذي برقم [٢٥١٦]، وصححه الألباني في «صحيح البخاري» برقم [٧٩٥٧].

شرك الشرك بالله والكفر به أوقعكم فما هذا الذي تزعمون إلا خدع من إبليس أو كذب مفترى أتى به مفتر كذاب.

ثم تلفت من حولك تجد أناسًا آخرين تعلقت قلوبهم بدجال أثيم ومشعوذ خبيث لئيم يستنزف أموالهم، ويخرب قلوبهم من الإيمان، ويملأ حياتهم بالآلام والقلق والرهق. والأعجب أن ترى شريحة من المتعلمين عميت قلوبهم وصدقوا تلك الترهات التي أتى بها أولئك الدجالون الذين يتعبدون للجن ويستعملونهم في مآربهم الخبيثة ولكن صاحب البصيرة يعلم قول الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]، ولكن صاحب البصيرة يعلم قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٩].

ثم تلفت إلى جهة ثالثة فسوف تجد من يثق في غير الله كثقته في الله أو أكثر ويظن أن هذا المخلوق يملك له رزقًا وتراه يخاطبك بكلمات جوفاء نكراء فيقول: إن فلانًا ولي نعمتي، ورزقي ورزق أولادي عليه، فهل هذه كلمة تخرج من قلب سليم؟! هل هذا اعتقاد يكون في قلب صحيح بصير؟! قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٧]، إن من الناس من يبيع دينه من أجل الرزق، من يفرط في طاعة ربه أو يعطلها بالكلية من أجل رزق وغفل هذا عن حقيقة عقدية أصيلة وهي أن خزائن الله مملوءة لا تنفد وأن الله تعالى لا ينفد عطاؤه، ولا تحد نعماؤه ولا يرد قضاؤه، ولا يضيع أولياؤه، ولا تنفعه طاعة ولا تضره معصية فهو الغني الكريم جَلَّجَلَالُهُ وفي الحديث القدسي قال ربنا الرحيم العلي جَلَّجَلَالُهُ: «**يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلكم جائعٌ إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرى فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن**

**أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»**[(١)]، الله أكبر! إنه حديث يملأ القلب بالهيبة والتعظيم لله الملك العليم الحكيم جَلَّجَلَالُهُ فكل شيءٍ في الكون لا يجري إلا بأمره ولا يقع في هذه الحياة أمر إلا بإذنه، فمن أبصر هذا المعنى فإنه لابد أن يصرف كل عبادة قلبه لربه جَلَّجَلَالُهُ وأن يحذر كل الحذر من وقوع شرك في عمله؛ لأن الشرك يحبط كل عمل، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥].

ثم تلتفت إلى جهة رابعة فتجد أناسًا عميت قلوبهم عن صفات الكمال لله جَلَّجَلَالُهُ فمنهم من يزعم أن الله موجود في كل الوجود بذاته، ومنهم من يزعم أن الله لا يتصف بأن له وجهًا ويدًا، ومنهم من يشبه صفات الله بصفات خلقه وكل ذلك ضلال وعمه والحق هو ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من غير تحريف ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل، نعم نؤمن بكل ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله: ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ولأنه لا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأنه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤]، فإذا قال ربنا بأنه سبحانه قد استوى على العرش أي علا وارتفع وبأن له وجهًا وأن له يدين وغير ذلك من صفات الجلال والكمال فما الداعي إلى صرف معنى الصفة عن ظاهره؟! وما الداعي إلى تعطيل الصفة وتحريفها وإثبات صفة أخرى كمن يقول: اليد بمعنى القدرة أو النعمة، وبأن استوى بمعنى استولى كل هذا انحراف عن الاستقامة في فهم صفات الله جَلَّجَلَالُهُ إن ربنا جَلَّجَلَالُهُ قد قال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ

(١) رواه مسلم برقم [٢٥٧٧]، والترمذي [٢٤٩٥].

وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، فالشطر الأول من الآية رد على المشبهة الذين شبهوا صفات الله بصفات خلقه، والشطر الثاني من الآية رد على من عطلوا صفات الله جَلَّجَلَالُهُ وحرفوها عن ظاهر معناها، ولكي ينضبط فهمك لصفات الله وأسمائه جل وعلا لابد من ثلاثة أصول: الأول- إثبات بلا تمثيل، الثاني- تنزيه بلا تعطيل، والثالث- قطع الطمع عن إدراك كيفية الصفة وحقيقتها كما سئل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن صفة الاستواء فقال له السائل: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟ فأطرق مالك وأخذته الرحضاء [أي العرق] ثم رفع رأسه فقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ولا يقال كيف؟ وكيف عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة، أخرجوه.

وفي رواية عن مالك أنه قال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[1].

إن أهم قضية في حياتك أن تعيش على اعتقاد صحيح؛ لأن العقيدة هي أصل الدين ولا يقبل الله من عبد عملًا إلا إذا كان اعتقاده سليمًا خاليًا من الشرك بصوره المتعددة، فصحح عقيدتك يصح كل شيءٍ في حياتك وتبصر حقائق الوجود والحياة في معناها الحقيقي الذي أراده الله جَلَّجَلَالُهُ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

### ثانيًا- البصيرة بحقيقة الدنيا والآخرة:

قال الله جل وعلا: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧]، وقال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

---

(١) «مختصر العلو للعلي الغفار» للحافظ الذهبي ص [١٤١] رقم [١٣١-١٣٢] ط. المكتب الإسلامي.

وفي صحيح مسلم عن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»[(١)]، إن من طالع نصوص القرآن والسنة رأى أن الدنيا ضئيلة قليلة ذاهبة زائلة وأن الآخرة هي الباقية الخالدة وحين يفهم ذلك تراه حريصًا على إعمار آخرته وعبادة ربه ويزهد في هذه الدنيا التي غرَّت وأضلت كثيرًا من الناس وصاروا لها وحدها يعملون ومن أجلها يكافحون ويمكرون، غرقوا في طلبها وتحصيلها، وأكلوا الحرام ونسوا الآخرة وكل ذلك عمى عن حقيقتها وحاله كحال من ظن البعرة تمرة وأن الورم شحم، حاله كحال الشارب من ماء البحر كلما شرب منه ازداد عطشًا حتى يموت وتتفجر بطنه، هناك أناس كثيرون عموا عن الآخرة ونسوا لقاء الله وشغلتهم هذه الدنيا عن دينهم فزهدوا فيه وباعوه بعرض من الدنيا قليل ولذلك فقد حذرنا ربنا من فتنة الدنيا فقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [فَاطِر: ٥]، وقد قيل: حب الدنيا رأس كل خطيئة، قلت: نعم فما سرق من سرق ولا زنا من زنا ولا أكل الربا من أكله ولا قتل من قتل ولا حسد من حسد إلا من أجل الدنيا، ولا قطعت الأرحام وما أكل الحرام إلا من أجل الدنيا.

إن الدنيا هي التي أقعدت كثيرًا من الناس عن البذل لله والتضحية بالنفس والمال في سبيل الله جَلَّ جَلَالُهُ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التَّوْبَة: ٣٨]، والمؤمن الصادق اليقظ هو من يرى حقيقة الدنيا فيعطيها حجمها ويرى حقيقة الآخرة فيبذل كل البذل من أجل أن يكون فيها من الفائزين السعداء قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ

(١) رواه مسلم برقم [٢٨٥٨].

ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٨-١٩]، اللهم اجعلنا ممن عمل للآخرة ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

وكل بساط عيش سوف يطوى ... وإن طال الزمان به وطاب

ولله رد من قال:

لا تركنن إلى القصور الفاخرة ... واذكر عظامك حين تمسي ناخرة

وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل ... يارب إن العيش عيش الآخرة

### ثالثًا- البصيرة بالسنة والبدعة:

أكمل الهدي هدي محمد ﷺ، وما مات رسول الله إلا بعد أن تم الدين ولم يترك النبي ﷺ خيرًا إلا ودلنا عليه وما ترك شرًا إلا وحذرنا منه، والعبادات توقيفية فلا يجوز أن يحدث الإنسان شيئًا في الدين ليتقرب به إلى الله إلا إذا كان قد ورد في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ وكل عمل لا يوافق سنة رسول الله صلوات الله عليه وسلامه فهو مردود على صاحبه قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**»[(١)]، وما ابتدع الناس في الدين بدعة إلا رفعت في مقابلها سنة، والبدعة من أخطر الأمور على الدين؛ حيث إنها تشوه معالم الدين، ويضل بسببها كثير من الناس، وتضيع أعمالهم هباء منثورًا بسبب أن هذه العبادات لم توافق هدى سيد البشرية رسول الله ﷺ خذ مثالًا وقس عليه في كل سنة يحتفي جمهور عريض من المسلمين بالمولد النبوي والإسراء والمعراج وليلة النصف من شعبان ولكن صاحب البصيرة ينظر فيرى أن رسول الله ﷺ لم يحتفل قط بشيءٍ من ذلك وكذلك كل الصحابة والتابعين لم يحتفلوا بذلك وهم أعلم بدين الله وأشد توقيرًا له منا فيقول: لو كان خيرًا لسبقونا إليه، فيسلم له دينه حينئذٍ ويعصمه الله من الوقوع في البدع إننا نسأل هذه الجماهير العريضة

(١) رواه البخاري برقم [٢٦٩٧]، ومسلم برقم [١٧١٨].

التي تعبدت لله بمثل هذه البدع جهلًا منهم واتباعًا للزائغين الذين يحسنون بهم الظن وقد يعذر العامي المقلد لكن ما عذر من اختار العمى وهو عالم؟! نقول لأولئك المحتفلين: لا نشك في حبكم لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولكن هل تأملتم هذه الحجة لعل الله يجعل فيها هداية للقلوب: لقد مكث رسول الله عليه الصلاة والسلام بعد النبوة ثلاثة وعشرين عامًا فهل سمعتم قط أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ احتفل بمولده وأقام الاحتفالات ووزعت الحلوى وأنشدت القصائد في مدحه؟! والجواب: كلا لم يرد شيء من ذلك عن رسول الله نقول إذًا فلنقتد ولنهتدِ بفعل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

**سؤال آخر:** هل دعانا رسول الله إلى الاحتفال بيوم مولده؟! الجواب كلا. سؤال ثالث: هل نحن أكثر حبًا لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الصحابة وأعلم بحقوق النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منهم؟! الجواب كلا، فنقول: ولم ينقل قط عن الصحابة والتابعين أنهم احتفلوا بميلاد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فهل هديهم أكمل وأسلم أم هدي المخرفين الذين ضلوا عن سواء السبيل؟!

وثمة سؤال: أيهما أولى أن يُحتفل به ميلاد الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أم بعثته ونزول الوحي عليه في غار حراء؟! لماذا جعلتم الميلاد أولى مع أن البعثة هي الميلاد الحقيقي للدعوة النبوية؟!

إن صاحب البصيرة لا يحتاج إلى مجادلة ومناقشة وإنما إذا قيل له: هذا أمر لم يرد عن رسول الله ولا عن أصحابه والتابعين تركه وعلم أن الخير ما فعلوه وأن الشر ما أعرضوا عنه وتركوه، فإذا اهتدى واقتدى بهدي الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه سلم له دينه ونجا من البدع المضلة المهلكة التي تؤدي بصاحبها إلى النار عياذًا بالله، فكل ما لم يرد فيه نص ولم يرد عن السلف فعله؛ فاجتنبه واجعل دليلك إلى ربك قرآنه وسنة نبيه وهدي السلف الصالحين رضوان الله عليهم.

**رابعًا- البصيرة بعظمة الإسلام وبقائه:**

الإسلام هو دين الله ولا يقبل الله من أحدٍ دينًا سواه قال الله تعال: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ومهما دبر المشركون وائتمروا، وخططوا ومكروا؛ فإن الإسلام باقٍ محفوظ بحفظ الله له، ولن تستطيع قوة مهما بلغت أن تستأصل الإسلام أو أن تطفئ نوره قال الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣]، إنهم يخططون ويمكرون وينفقون لحرب الإسلام وسحقه ولكن تدبيرهم يكون إلى زوال؛ لأن الله ربي وربكم قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦]، فيا أخي لا تنخدع بحضارتهم الزائفة، ولا يغرنك ما هم فيه الآن من قوة وصولجان فما استأسدوا علينا وما أذلونا إلا بسبب ضعف انتمائنا لديننا، وعدم تمسكنا به، وإيثارنا الدنيا ومتاعها عن البذل لإعلاء كلمة الله فلا تظنن أن العدو غلب ولكن الحافظ أعرض ولو عدنا لعاد الله لنا بالعزة والنصرة والتمكين قال الله رب العالمين في كتابه الحكيم المبين: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧]، اطمئن فالإسلام باق منتصر، ولكن أين بذلك أين عملك أين سعيك لإعزازه ونصره؟!

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام، وذلًا يذل الله به الكفر**»[(١)].

(١) رواه أحمد (٢/ ١٧٦)، والدارمي (١/ ١٢٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم [٤].

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث ثوبان أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى له منها**»(١).

وعن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص وسئل: أي المدينتين تفتح أولًا القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق قال: فأخرج منه كتابًا قال فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نكتب إذ سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أي المدينتين تفتح أولًا أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مدينة هرقل تفتح أولًا يعني قسطنطينية**»، قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ عقب هذا الحديث في الصحيحة: ورومية هي روما كما في «معجم البلدان» وهي عاصمة إيطاليا اليوم وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثماني كما هو معروف وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالفتح، وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولا بد ولتعلمن نبأه بعد حين، ولا شك أيضًا أن تحقيق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة، إلى الأمة المسلمة وهذا مما يبشرنا به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله في الحديث: «**تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما يشاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكًا عاضًا فيكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت**»(٢).

أي أخي، كن ذا بصيرة وثقة بوعد الله ورسوله، فالإسلام قادم،الإسلام باق، الإسلام منتصر بنصرة الله له، محفوظ بحفظ الله له، ومهما علا الباطل وظهر قويًا أمام الناظرين؛ فإنه في الحقيقة ضعيف خاوٍ، سرعان ما ينزوي ويزول إذا نهض المسلمون من

(١) رواه مسلم برقم [٢٨٨٩]، وأبو داود برقم [٤٢٥٤]، والترمذي برقم [٢١٧٦].

(٢) انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني (١/ ٣٣-٣٤) ط. مكتبة المعارف، والحديث رواه أحمد (٤/ ٢٧٣) وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم [٥].

رقدتهم، واستيقظوا من غفلتهم، وقاموا بحق دينهم، ودعوا الخلق إليه بحق، فالباطل أبتر لا نسب له ولا ناصر له إلا حثالة من السفهاء الجهلة الذين لو عرفوا حقيقة الباطل لكانوا من المحاربين له ويكفينا أمانًا وعزة قول ربنا جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، فإياك أخي أن تنخدع بما فيه أهل الكفر في هذا الزمان من بهرجة وحضارة مزعومة مكذوبة، ولا تيأس فإن اليأس ليس له وجود في قلوب المؤمنين، ولا تقنط فإن الله معنا وهو خير الناصرين، ولا تهن ولا تضعف وحقق الإيمان تجد معية الله لك، وقرب الله منك وتأييد الله ونصرته لك، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

**خامسًا- البصيرة بالفتن:**

قال الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، وقال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، الفتن واقعة لا محالة لكن من كان بصير القلب عارفًا بطبائعها وعواقبها ونهايتها عصمه الله منها، وأقوى سلاح يواجه به المرء هذه الفتن إيمان راسخ وعلم دقيق صحيح نافع، والفتن في هذا الزمان تتتابع تترى كالسحب المتراكمة، والأمواج المتلاطمة فتطيش فيها عقول، وتموت فيها قلوب، وتنتكس فيها نفوس، ويغرق في دواماتها الكثير والكثير ولا ينجو إلا من عصمه ربُّه، وكان قد استعد قبل ذلك بأسباب النجاة.

يقول المقدم حفظه الله: وقد شبه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفتنة بقطع الليل المظلم أي الذي لا قمر فيه ولا ضياء، فالساري فيه على شفا هلكة إن لم يكن معه نور يبصر به مواقع

قدمه، وهو في حال الفتن نور العلم الذي يكشف أهلها ويبين حالها، قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا تضرك الفتنة ما عرفت دينك إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق بالباطل[١].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم وإذا أدبرت عرفها كل جاهل.

فبالعلم تعرف الفتن، ويعرف أهل الفتن، وتعرف طبائعها، وسبل النجاة منها؛ فليفزع الناس حينئذٍ إلى العلماء فهم ورثة الأنبياء الذين أقامهم الله جَلَّ جَلَالُهُ لهداية الأمة وبيان الحق كما قيل في صاحب بصيرة.

**بصير بأعقاب الأمور برأيه ... كأن له في اليوم عينًا إلى غدِ**

والمرء مأمور في الفتن بالصبر والاستمساك بكتاب الله وسنة نبيه والاقتداء بالعلماء الربانيين المحققين الذين عرفوا بالفضل والعلم والحكمة وقول الحق، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، ولمن ابتلي فصبر فواهًا**»[٢]، فما أحسن وما أطيب حال من ابتلي بالفتن فصبر عليها ابتغاء وجه الله جَلَّ جَلَالُهُ.

### سادسًا- البصيرة بحقيقة الشهوات واللذات:

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: قد جاء في الأثر: اللهم أرنا الأشياء كما هي، وهذا كلام حسن غاية الحُسن، وأكثر الناس لا يرون الأشياء بعينها، فإنهم يرون الفاني كأنه باقٍ، ولا يكادون يتخايلون زوال ما هم فيه وإن علموا ذلك، إلا أن عين الحس مشغولة بالنظر إلى الحاضر، ولو رأى اللص قطع يده هان عنده المسروق، فمن رأى جمع الأموال ولم ينفقها فما رآها بعينها، إذ هي آية لتحصيل الأغراض، لا تراد لذاتها، ومن رأى المعصية بعين الشهوة فما رآها إذ فيها من العيوب ما شئت، ثم ثمرتها عقوبة آجلة وفضيحة عاجلة[٣].

---

(١) «بصائر في الفتن» ص [٢٠] ط. العالمية.

(٢) رواه أبو داود برقم [٤٢٦٣]، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٣/ ٨٠٣).

(٣) «صيد الخاطر» ص [٤٣٢] ط. دار الحديث بالقاهرة.

كثير من الغارقين في المعاصي والشهوات عميت قلوبهم عن حقيقة ما هم فيه، فليس لهم من لذاتهم إلا آلام تعقبها حسرات، وفضيحة يتلوها خزي وندامة ثم تذهب اللذات وتبقى الآثام في صحف الأعمال أين لذات الأعوام الماضية التي تمتع بها الغافلون؟! بل أين لذة الأمس التي عاند من أجلها ربه، وباع فيها إيمانه وهذا من أجل شهوة محرمة لا بقاء لها.

**تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها ... من الحرام ويبقى الوزر والعارُ**

**تبقى عواقب سوء من مغبتها ... لا مرحبًا بلذة من بعدها النارُ**

الله أكبر! ما أشد غفلة العصاة أولئك الذين يقضون الليل والنهار في معصية الله، منهم شباب وفتيات، في المعاهد والجامعات، صارت حياتهم كل حياتهم لذات وضحكات، وزنا ومكالمات، وكم رأوا بينهم من عظات، فلانة قد فضحت، وفلان قد قتل؛ لأنه هتك عرضًا، وفلانة مات أبوها غمًا لخبيث ما فعلت، وكم فرقت من أسر وهدمت من بيوت، وحلت نكبات وآلام بين قوم كانوا آمنين، ولكن لما غرتهم الشياطين، وخدعتهم الشهوات انساقوا وراء نزواتهم ونسوا نظر ربهم إليهم واطلاع الله عليهم، فخلعت عنهم أوصاف الإيمان وحلت بهم صفات أهل الفسوق والعصيان، فهل لو نظر العاقل إلى تلك الثمرات المرة والعواقب الأليمة التي يجنيها المرء من عصيانه لمولاه أكان يؤثر لذة محرمة على عفة مكرمة؟! أكان يؤثر اتباع الشيطان وموافقة الخبثاء من الأصدقاء والخلان على طاعة ربه ورضوانه؟! أفق أيها المسلم وانظر إلى مآلك، واطلاع الله على أعمالك وعلمه بسرك وجهرك وكل أحوالك.

قال الشاعر:

**الناس في غفلة والموت يوقظهم ... وما يفيقون حتى ينفذ العمر**

**يشيعون أهاليهم بجمعهم ... وينظرون ما فيه قد قبروا**

**ويرجعون إلى أحلام غفلتهم ... كأنهم ما رأوا شيئًا ولا نظروا**

وقال آخر:

**لو فكر العاقل في منتهى حسن الذي يسبيه لم يسبه**

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نظرت في سبب دخول جهنم فإذا هي المعاصي، فنظرت في المعاصي، فإذا هي حاصلة من طلب اللذات، فنظرت في اللذات فرأيتها خدعًا ليست بشيءٍ، وفي ضمنها من الأكدار وما يصيرها نغصاً فتخرج عن كونها لذات؛ فكيف يتبع العاقل نفسه ويرضى بجهنم لأجل هذه الأكدار؟ فمن اللذات الزنا، فإن كان المراد إراقة الماء فقد يراق في حلال، وإن كان في معشوق فمراد النفس دوام البقاء مع المعشوق فإذا هي ملكته فالمملوك مملوك، وإن هو قاربه ساعة ثم فارقه فحسرة الفراق تربو على لذات القرب، وإن كان له ولد من الزنا فالفضيحة الدائمة والعقوبة التامة، وتنكيس الرأس عند الخالق والمخلوق.

وأما الجاهل فيرى لذته في بلوغ ذلك الغرض، وينسى ما يجني مما يكدر عيش الدنيا والآخرة.

ومن ذلك شرب الخمر، فإنه تنجيس للفم والثوب، وإبعاد للعقل، وتأثيرات معلومة عند الخالق والمخلوق، فالعجب ممن يؤثر لذة ساعة تجني عقابًا ذهاب الجاه وربما خرج بالعربدة إلى القتل.

وعلى هذا فقس جميع المذوقات، فإن لذتها إذا وزنت بميزان العقل لا تفي بمعشار عشير عواقبها القباح في الدنيا والآخرة، ثم هي نفسها ليست بكثير شيء فكيف تباع الآخرة بمثل هذا؟! سبحان من أنعم على أقوام كلما لاحت لهم لذة نصبوا ميزان العقل ونظروا فيما يجنى، وتلمحوا ما يؤثر تركها فرجحوا الأصلح، وطمس على قلوب فهي ترى صورة الشيء وتنسى جناياته! ثم العجب أنا نرى من يبعد عن زوجته وهو شاب ليعدو في الطريق فيقال ساعي، فيغلب هواه لطلب ما هو أعلى وهو المدح كيف لا يترك محرمًا ليمدح في الدنيا والآخرة؟! ثم قدِّر حصول ما طلبت من اللذات وذهابها

وأحسب أنها قد كانت وقد هانت وتخلصت من محنها أين أنت من غيرك؟ أين تعب عالم قد درس العلم خمسين سنة؟ ذهب التعب وحصل العلم، وأين لذة البطال؟ ذهبت الراحة وأعقبت الندم[1].

فدونك فاصنع ما تحب فإنما ... غدًا تحصد الزرع الذي أنت زارعُ

أي أخي،

تذكر يوم تأتي الله فردًا ... وقد نصبت موازين القضاء

وهتكت الستور عن المعاصي ... وجاء الذنب منكشف الغطاء

### سابعًا- البصيرة بتلبيس إبليس وكيده:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فَاطِر: ٥-٦]، وقال جل ذكره: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝١١٩ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النِّسَاء: ١١٩-١٢٠]، الشيطان خبير بطرق الشر وهو يسعى جاهدًا في الليل والنهار لكي يضلك ويصدك عن سبيل الله، ولن يهدأ قط في التزيين والتسويل والإضلال ما دامت بالمرء حياة؛ فعلى المؤمن أن يكون بصيرًا بحيله دائم الاستعاذة بالله من شره ووسوسته، دائم الذكر لله، فإذا كان الشيطان لا يغفل عنك فينبغي ألا تغفل عنه وعن كيده فإنه حريص كل الحرص على وقوع المرء في سخط الله وغضبه ومن مكائده وحيله.

١- يخدع الإنسان ويزين له حتى يوقعه في المعصية ثم يشمت به ويضحك منه، يأمره بالسرقة والزنا والقتل ويدل عليه ويفضحه كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ

(١) «صيد الخاطر» ص [٤٤٣-٤٤٤].

عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۖ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وكما قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦].

**٢- يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه:**

وذلك حتى يقعدوا عن جهادهم وينهزموا أمامهم فلا يأمرونهم بمعروف ولا ينهونهم عن منكر، وهذا من أعظم كيده لأهل الإيمان، وقد ذكر الله تعالى ذلك عنه فقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، يقول ابن القيم عليه رحمة الله: والمعنى عند جميع المفسرين يخوفكم بأوليائه قال قتادة: يعظمهم في صدوركم ولهذا قال: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم[(١)].

٣- يشام النفس أي: يختبر نفس الإنسان لينظر ما هي الصفة الغالبة عليه هل هو شجاع مقدام مثلًا أم هو ضعيف الهمة كسول، فإن وجده ضعيف الهمة خذله عن الطاعات ورماه بمرض القصور والتثاقل عن العبادة وزيَّن ذلك له، فيفرط في عبادة الله ويصل به الحال إلى ترك السنن والواجبات ثم الوقوع في المحرمات أما إن وجده الشيطان شجاعًا جريئًا نشيطًا فإنه يدفعه إلى الغلو والإفراط ويوهمه أن المأمور به في الشرع لا يكفيه قال بعض السلف: ما أمرنا الله بأمرٍ إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو ولا يبالي بأيهما ظفر.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل في هذين الواديين: وادي التقصير ووادي المجاوزة والتعدي فقوم قصر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحد بالوسواس وقوم قصر بهم في حق الأنبياء وورثتهم حتى

(١) «إغاثة اللهفان» ص [١١٨] ط. مكتبة الإيمان.

قتلوهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم، وقصر بقوم في خلطة الناس حتى اعتزلوهم في الطاعات كالجمعة والجماعات وتجاوز بآخرين حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام[1]، فعلى المرء المسلم أن يكون بصيرًا بكيد عدوه، متيقظًا لأساليبه في الإغواء والإضلال، حريصًا على مخالفته، دائم الاستعانة بالله والاستعاذة به من شره.

## سبل تحصيل البصيرة

من أعظم النعم التي ينعم الله بها على عبد من عباده أن يؤتيه بصيرة تعصمه من الزلل، وفهمًا يحفظه من الانحراف والشطط، لاسيما في هذا الزمان الذي اختلطت فيه الأوراق، واشتبهت فيه الأمور وتأججت نيران الكيد للإسلام والمسلمين، ما أحوج المسلم في هذه الأيام إلى بصيرة يفرق بها بين الحق والباطل، والسنة والبدعة، والهدى والضلال ولكن كيف يحصل المرء البصيرة؟ وهل إلى ذلك من سبيل؟ الجواب: من فضل الله علينا أن جعل هذه البصيرة ميسرة للتحصيل متحققة لمن أرادها وصدق في طلبها، ومن هذه الوسائل التي تستجلب للمرء بصيرة في دينه ما يلي:

### ١- طلب العلم وسؤال العلماء:

بطلب العلم يستبين الطريق وتتضح معالم الحق، بطلب العلم يصحح المرء نيته وعبادته، بطلب العلم يزداد المرء خشية لله وتوكلًا عليه، بطلب العلم يزداد المرء بصيرة بدينه ومعرفة بعظمته، بطلب العلم يعرف سفاهة الكفر وخبث الضلال والانحراف عن صراط الله المستقيم، ولا يستوي أبدًا عالم وجهول قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، لقد جعل الله تعالى أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون، فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ

(١) المصدر السابق [١٢٤] باختصار وقد توسع ابن القيم في إيراد أمثلة لذلك فإن شئت الوقوف على تفصيل مكايد الشيطان فارجع إلى كتاب «إغاثة اللهفان» أو «تلبيس إبليس» الأول لابن القيم والثاني لابن الجوزي.

أَعْمَىٰ﴾ [الرَّعْد: ١٩]، فليس ثمة إلا عالم أو أعمى، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»(١). وفي الصحيحين أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»(٢)، من أهم السبل لتحصيل البصيرة طلب العلم من أهل العلم المحققين الربانيين وسؤالهم عما اشتبه وحضور مجالسهم وجمع أقوالهم لاسيما في النوازل التي تنزل بالأمة فالعلماء هم ورثة الأنبياء، والدنيا كلها ظلمة إلا مجالس العلماء، والفرق بين العالم والجاهل كالفرق بين النهار والليل، والأحياء والأموات والبصير والأعمى كما قيل:

**وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبورُ**

**وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشورُ**

قال الإمام ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعيِّن على كل امرئٍ في خاصة نفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه عن أهل ذلك الموضع(٣).

بالعلم تزال حُجُب الغفلة والجهل عن القلوب ويبصر الإنسان الحق واضحًا ظاهرًا فيستمسك به ويسير في حياته عليه؛ فتعلَّم تُعْصم وتوفق وتسدد ويؤتك الله بصيرة في دينك، ولا تفرط في دروس العلم حتى لا تصاب بظلمة القلب وقسوته.

**٢- التقوى:**

ودليل ذلك قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

[الأنفال: ٢٩]

---

(١) رواه ابن ماجه برقم [٢٢٤] وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» برقم [١٨٣].

(٢) رواه البخاري برقم [٧١]، ومسلم برقم [١٠٣٧].

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٠-١١) ط. دار الكتب العلمية.

قال ابن زيد وابن إسحاق: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ هدى في قلوبهم يفرقون به بين الحق والباطل[١]، وقال الألوسي البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ﴿يَجْعَل لَّكُمْ﴾ بسبب ذلك الاتقاء ﴿فُرْقَانًا﴾ أي: هداية ونورًا في قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل كما روي عن ابن جريج وابن زيد، أو نصرًا يفرق بين المحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين كما قال الفراء، أو نجاة في الدارين كما هو ظاهر كلام السدى، أو مخرجًا من الشبهات كما جاء عن مقاتل أو ظهورًا يشهر أمركم وينشر صيتكم كما يشعر به كلام محمد بن إسحاق[٢].

فالتقيُّ قريب من ربه ومن كان من ربه قريبًا فإن الله يتولاه ويحفظه من الزلل والانحراف، ويرزقه علمًا نافعًا كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وبالتقوى تيسَّر الأمور وتفرج الكروب قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، فالتقوى تكون سببًا في زيادة العلم وزيادة الهدى وزيادة الإيمان وزيادة الحفظ، وزيادة الفهم والبصيرة وبالتقوى يكون الله معك فإذا كان الله معك سددك وحفظك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

### ٣- تلاوة القرآن بتدبر وفهم:

القرآن نور البصائر والعقول، وسبيل زكاة النفوس والقلوب لاسيما إذا قرأ المرء القرآن بالتدبر والتأمل والمعايشة لمعانيه وربط ما ورد في القرآن بالواقع حينئذٍ يجد المرء ما يؤنسه وما يهديه ويبصره بحقائق الكون وما فيه، وهل هناك كتاب في الوجود يوقظ

---

(١) «زاد المسير في علم التفسير» لابن الجوزي (٣/ ٢٦٣) ط. دار الكتب العلمية.

(٢) «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» (٦/ ٢٨٥) ط. دار الفكر.

الفطر ويحي القلوب، ويطهر النفوس كهذا القرآن المجيد الذي هو كلام الحكيم الخبير جَلَّجَلَالُهُ؟! إن الحياة لا يمكن أن تستقيم قط إلا في نور هذا القرآن العظيم، وعلى حسب نصيب المرء من القرآن يكون نصيبه من النور قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشُّورَىٰ: ٥٢][(١)].

قال صديق حسن خان: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ المراد به القرآن قاله ابن عباس وقيل: النبوة، قال مقاتل: يعني الوحي بأمرنا ومعناه القرآن؛ لأنه يهتدى به ففيه حياة من موت الكفر ثم قال: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ أي: جعلنا الروح الذي أوحيناه إليك ضياء ودليلًا على التوحيد والإيمان ﴿نَّهْدِى بِهِۦ﴾ المراد به الهداية الموصلة بدليل قوله ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ هدايته ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ ونرشده إلى الدين الحق[(٢)].

وما استجلبت بصيرة القلب بمثل القرآن فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سماه بصائر قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأَنْعَام: ١٠٤]، والبصائر كما يقول الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي ما تبصرون به الهدى من الضلال والإيمان من الكفر، ثم ساق سنده عن ابن زيد قال: البصائر الهدى بصائر في قلوبهم لدينهم وليست ببصائر الرؤوس وقرأ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحَجّ: ٤٦]، وقال: إنما الدين بصره وسمعه في هذا القلب[(٣)]، فكلما كانت تلاوتك للقرآن أكثر وكان تدبرك له أتم كلما كانت بصيرتك أظهر وأقوى.

---

(١) لي كتاب بعنوان «المعجزة الباقية» ارجع إليه تجد فوائد كثيرة بإذن الله.

(٢) «فتح البيان في مقاصد القرآن» (٦/ ٢١٦) ط. دار الكتب العلمية.

(٣) «جامع البيان في تأويل القرآن» للإمام الطبري (٥/ ٢٩٩) ط. دار الكتب العلمية.

**٤- إتقان العبادة والإكثار منها:**

العبادة غذاء القلب وزاده، وبها يقوى نوره وضياؤه خاصة إذا أتقنها المرء وحقق فيها الإخلاص والخشوع وغير ذلك من حقوقها، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العَلَق: ١٩]، وفي الحديث القدسي قال ربنا جَلَّ جَلَالُهُ: «**وما زال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه**»[(١)]، ومعنى كنت سمعه الذي يسمع به.... إلى آخره أي أن الله تعالى يكون مسددًا له في هذه الأعضاء الأربعة، يسدده في سمعه فلا يسمع إلا ما يرضي الله وما فيه الخير والصلاح، ويعرض عما يغضب الله فلا يستمع إليه وكذلك يسدده في يده فلا يعمل بيده إلا ما يرضي الله وكذلك يسدده في رجله فلا يمشي إلا إلى ما يرضي الله فلا يسعى إلا إلى ما فيه الخير[(٢)].

والمقصود -أيها الأحبة- أن العبادة الخالصة لله تجعل في القلب نورًا وتحدث فيه بصيرة وفهمًا لأنها تقرب العبد من ربه وكلما كان العبد من الله أقرب كان بالحق أبصر وبدين الله أعلم، وتأمل كيف وصف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العبادات بهذا النور فقال عليه صلوات الله وسلامه: «**الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء**»[(٣)].

وكلما ازداد الإيمان في القلب بزيادة الطاعات فيه زاد نوره وعظمت بصيرته يقول ابن القيم عليه رحمة الله: المؤمن قلبه مضيئ يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ولكن لا مادة له من نفسه، فجاءت مادة الوحي فباشرت قلبه، وخالطت بشاشته فازداد نورًا بالوحي على نوره الذي فطره الله عليه، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة، نور على نور، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثرًا، ثم يسمع الأثر مطابقًا لما شهدت به فطرته فيكون نورًا

---

(١) رواه البخاري برقم [٦٥٠٢].

(٢) انظر «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين. (١/ ٤٤٩) ط. دار البصيرة

(٣) رواه مسلم برقم [٢٢٣].

على نور، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملًا ثم يسمع الأثر جاء به مفصلًا فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي وشهادة الفطرة[١].

### ٥- غض البصر وكف الجوارح عن الحرام:

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: النظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فالنظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولابد، ما لم يمنع منه مانع وفي هذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده[٢]، من المعلوم أن المعاصي تعمي القلب وتطفئ نوره يقول ابن القيم: المعاصي تفسد العقل فإن للعقل نورًا والمعصية تطفئ نور العقل ولابد، وإذا طفئ نوره ضعف ونقص، ثم قال: الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، قال: هو الذنب بعد الذنب، وقال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يعمي القلب، وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم، وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا، ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذٍ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد[٣]، إن إطلاق البصر يشتت عزم القلب ويضعف الإيمان فيه وكذلك يضعف بصيرته كما قيل: من غض بصره أطلق الله نور بصيرته، وعكس ذلك صحيح فمن أطلق بصره

---

(١) «التفسير القيم» [٣٠٧] ط. الصفا.

(٢) «الداء والدواء» ص [٢١٣] ط. دار ابن رجب.

(٣) المصدر السابق ص [٩١-٩٢].

عميت بصيرته والمعاصي كلها والإغراق في الشهوات المحرمة تطمس البصيرة وتذهب نور القلب، وتأمل هذا المعنى في قول الله عن قوم أعمتهم شهواتهم وأصبحوا أسرى لها يتقلبون ليل نهار في سكرها، حتى عميت قلوبهم تمامًا عن الحق وصراطه المستقيم إنهم قوم نبي الله لوط الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢]، والمقصود -أيها الأحبة- أن تطهير القلب من المعاصي يطلق نور بصيرته وكلما ازداد القلب طهرًا كلما ازداد إشراقًا ونورًا وبصيرة.

### ٦- صدق الاتباع، واللهج بالدعاء:

اتباع السنة ظاهرًا وباطنًا سبيل لانفتاح عين البصيرة، وزيادة النور في القلب دليل ذلك قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٨]، وكذلك فليداوم العبد على التضرع والدعاء بأن يرزقه الله تعالى بصيرة في دينه، ومن وفق للدعاء فإن الإجابة قريبة حاصلة بإذن الله ومشيئته جَلَّ جَلَالُهُ، اللهم إنا نسألك يا من علَّمت إبراهيم وفهمت سليمان أن ترزقنا فهمًا دقيقًا، وإيمانًا راسخًا، اللهم يا من خزائن رزقه لا تنفد ارزقنا بصيرة في ديننا وخذ بنواصينا إلى ما يرضيك عنا، وهيئ لنا سبيلًا لبلوغ رضاك والفوز بجنتك، اللهم أحينا على طاعتك، وأنعم علينا في الآخرة بالنظر إلى وجهك الكريم.

❁ ❁ ❁